التراث

بين التقديس والتبخيس

إعداد الدكتور

عبد التواب محمد محمد أحمد عثمان

مدرس العقيدة والفلسفة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

جامعة الأزهر

التراث بين التقديس والتبخيس

عبدالتواب محمد محمد أحمد عثمان

تخصص العقيدة والفلسفة، قسم أصول الدين، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة،جامعة الأزهر.

البريد الإلكتروني: abdeltawabothman.4@azhar.edu.eg

الملخـــص :

كثر الحديث حول التراث، وتنوعت الأقوال فيه بين باحث عن الإيجابيات، لا يرى غيرها، ويسعى إلى تقديسه بكل ما فيه من أقوال وآراء، ويخلط بين الوحي الإلهي المقدس وأقوال الرجال التي تقبل النقد والتصويب، وفريق آخر على النقيض لا يبحث إلا عن السلبيات، ويسعى إلى تضخيمها، ويهيل التراب على إيجابيات التراث ومحاسنه. وهناك فريق يقف في منطقة وسط بين التقديس والتبخيس، فيعطي للتراث قدره ومكانته، ويظهر إيجابياته ومحاسنه، ويقف موقف النقد من السلبيات فيوضحها ويبين ما فيها من خلط. ومن هنا كان هذا البحث (التراث بين التقديس والتبخيس) حيث يعرض موقف المعاصرين من التراث بين القبول والرفض والتشدد والتفريط، وصولا إلى وضع منهجية للتعامل مع التراث تتضمن ضوابط للتعامل وآلية للفهم يمكن أن تكون مدخلا للتعامل مع التراث بقدر من الإنصاف يبتعد عن الغلو أو الجفاء. وتحدثت فيه عن: التعريف بمصطلحات البحث: التراث، التقديس، التبخيس. والمطلب الأول: موقف المعاصرين من التراث. والمطلب الثاني: ضوابط التعامل مع التراث.

الكلمات المفتاحية: التراث، التقديس، التبخيس، التجديد،النقد.

The Heritage in between Consecration and Devaluation

By: Abdel-Tawab Mohammed Mohammed Othman
Majored in Islamic Creed and Philosophy
Department of Osoul El- Deen
Faculty of Islamic and Arabic Studies for Men in Cairo
Azhar University

Abstract

There have been various talks about heritage; some of them were only concerned with the positive aspects trying to consecrate the included views and sayings, mixing the divine revelation with men's sayings which could be criticized and corrected. On the contrary, some other talks were concerned only with the negative aspects, amplifying their influence and disregarding the positive aspects and merits of the heritage. A third party stands amid way between consecration and devaluation, giving due respect and value to the heritage as well as highlighting its positive aspects and merits. In addition, this third party studies and criticizes the negative aspects of the heritage to remove any misunderstanding. Thus, this research is keen on discussing the attitudes of the contemporaries towards the heritage which vary from acceptance to rejection and from extremism to excessiveness. Accordingly, the research attempts to establish a methodology for handling heritage. This methodology includes tacit rules and a mechanism for understanding heritage. This mechanism could be relied on as an introduction to judge the heritage fairly; a way from extravagance or repulsion. To conclude, the research defines the concepts of heritage, consecration and devaluation. Moreover, it has two requirements to satisfy; the first studying the attitudes of the contemporaries towards the heritage whereas the second establishing the rules needed for dealing with the heritage.

Keywords: heritage, consecration, devaluation

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.

فإنه مما لا شـك فيه أن التراث الإسـلامي يدور حول الدين الإسـلامي ومعارفه، فالقرآن الكريم والسـنة النبوية المشـرفة هما محاور التراث، حولهما يدور، وفي علومهما ومعارفهما يبحث وينقب، وقد اتسعت دائرة التراث باتساع دوائرهما، فصار هذا القدر الهائل من التراث الذي نتعامل معه.

وقد كثر الحديث حول التراث، وتنوعت الأقوال فيه بين باحث عن الإيجابيات، لا يرى غيرها، ويسـعى إلى تقديسـه بكل ما فيه من أقوال وآراء، ويخلط بين الوحي الإلهي المقدس وأقوال الرجال التي تقبل النقد والتصـويب، وفريق آخر على النقيض لا يبحث إلا عن السـلبيات، ويسـعى إلى تضخيمها، ويهيل التراب على إيجابيات التراث ومحاسنه.

وهناك فريق يقف في منطقة وسـط بين التقديس والتبخيس، فيعطي للتراث قدره ومكانته، ويظهر إيجابياته ومحاسنه، ويقف موقف النقد من السلبيات فيوضحها ويبين ما فيها من خلط.

ومن هنا كان هذا البحث (التراث بين التقديس والتبخيس) حيث يعرض موقف المعاصـرين من التراث بين القبول والرفض والتشدد والتفريط، وصـولا إلى وضـع منهجية للتعامل مع التراث تتضـمن ضـوابط للتعامل وآلية للفهم يمكن أن تكون مدخلا للتعامل مع التراث بقدر من الإنصـاف يبتعد عن الغلو أو الجفاء.

وقد قسمت البحث إلى تمهيد ومطلبين وخاتمة.

أما التمهيد: فكان عن التعريف بمصطلحات البحث: التراث، التقديس، التبخيس.

المطلب الأول: موقف المعاصرين من التراث.

المطلب الثاني: ضوابط التعامل مع التراث.

أما الخاتمة فتشتمل على أهم النتائج المستخلصة من البحث.

أسأل الله تعالى أن ينفع به ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

التمهيد

التعريف بمصطلحات البحث

أولا: التراث: لغة: مشـتق من الفعل (ورث)، ومعناه: آل إليه الشـيء، والتراث والإرث والورث مترادفة، وهو مادي في المال، ومعنوي في الحسب والمجد، قال تعالى مخبرا عن زكريا عليه السلام: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[مـريـم: ٥،٦]، وقيل: الورث والميراث في المال، والإرث في الحسـب، وقد اعتبر الزمخشـري الإرث في المجد من المجاز(١).

وقد وردت كلمة التراث في القرآن الكريم في موضع واحد، قال تعالى: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴾[الفجر:١٩]، وقد وردت في السـنة النبوية الشـريفة بمعنى الميراث، عن علي بن أبي طالب ﷺ، قال: أكثر ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة في الموقف: "اللهم لك الحمد كالذي نقول وخيرا مما نقول، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، وإليك مآبي، ولك رب تراثي"(٢)، وعن أبي أمامة ﷺ، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر، وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك"، ثم نقر بإصبعيه فقال: "عجلت منيته قلت بواكيه قل تراثه"(٣).

وخلاصة هذه الأقوال: أن (التراث) في لغة العرب ورد بمعنى الميراث في المال أو في الأحساب،

---

(١)لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: ٧١١هـ)، ٢/ ١٩٩، ٢٠٠، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ، أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ٢/ ٣٢٧، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

(٢) سنن الترمذي: كتاب "الدعوات"، رقم "٣٥٢٠"، ، وقال: حديث غريب من هذا الوجه وليس إسناده بالقوي.

(٣) سنن الترمذي: كتاب "أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ"، باب "ما جاء في الكفاف والصبر عليه"، رقم "٢٣٤٧"، سنن ابن ماجه: كتاب "الزهد"، باب "من لا يؤبه له"، رقم "٤١١٧"، مسند أحمد، رقم "٢٢١٦٧".

وقد ورد في القرآن الكريم للتعبير عن كلا المعنيين، الميراث المادي، والميراث المعنوي.

واصطلاحا: تعددت تعريفات التراث عند العلماء، وسوف أنقل بعضها مع التعليق عليها:

- هو كل ما وصـــل إلينا مكتوبا في أي علم من العلوم أو فن من الفنون، أو هو بالتالي: كل ما خلفه العلماء في فروع العلم المختلفة[١].

- المكتوبات التي جاءت لنا في صورة مادية مات أصحابها[٢].

- الآثار المكتوبة الموروثة التي حفظها التاريخ كاملة أو مبتورة فوصلت إلينا بأشخاصها، فيشمل كل ما خلفه مؤلف من إنتاج فكري بعد حياته[٣].

- كل ما تركه الســلف للخلف، فكر ونظم وممارســة، وليس فقط تلك الأمهات المتداولة التي تركها كبار المفكرين والفلاسفة ومن في حكمهم[٤].

- التراث الإســلامي هو النتاج الإنســاني الفكري والوجداني الذي خلفته لنا أجيال الأمة الإســلامية الســابقة، ويمكن بلورته وتحديده في أقســام ثلاثة ضــرورة التمييز والفصــل، وهي: "التراث الديني"، و "التراث الفكري العام"، و "التراث الوجداني": الأدبي والفني بشعبه المتعددة[٥].

- التراث هو جماع خبرة المجتمع في تطوره المادي والمعنوي، وهو يتضــمن النصــوص والأفكار والقيم من ناحية، والمؤســســات والأبنية من ناحية أخرى، والعلاقات والممارســات من ناحية ثالثة،

---

(١) مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، الدكتور/ رمضان عبدالتواب، ص ٨، مكتبة الخانجي- القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٥م.

(٢) مدخل إلى التراث العربي الإسلامي، خالد فهمي وأحمد محمود، ص ١٨

(٣) التراث العربي، عبدالسلام هارون، ص ٢١، إصدار مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف الكويتية والشئون الإسلامية- الكويت، الإصدار الثمانون، ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م.

(٤) مقدمة كتاب "سلوك المالك في تدبير الممالك"، شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع، تحقيق د/ حامد عبدالله ربيع، ص ١٩، دار الشعب- القاهرة، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

(٥) الغارة على التراث الإسلامي، جمال سلطان، ص ٢٠، مكتبة السنة- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

بعبارة أخرى: التراث هو خلاصـــة خبرة المجتمع في تفاعله مع بيئته الداخلية والخارجية، وهو استخلاص كيفية تعامله مع التحديات التي واجهته في مسيرته التاريخية[١].

- مجموع قيم، ومعتقدات، وآداب، وفنون، ومعارف، جميع نشـاط الإنسـان المادي والمعنوي، وهو ناتج عن تراكم خبرات المجتمع، وهو شـاهد على تاريخ الأمة وأحوالها. ويتميز بأنه مكون من بنى مترابطة، ومتكاملة الأجزاء، ومتداخلة في كثير من الأوقات، ومنه ما هو ثابت ومنه ما هو متغير[٢].

- التراث الإسـلامي هو ما ورثناه عن آبائنا من عقيدة وثقافة وقيم وآداب وفنون وصـناعات وسـائر المنجزات الأخرى المعنوية والمادية، ومن ثم فلن يقتصـر التراث على المنجزات الثقافية والحضـارية والمادية، بل إنه يشتمل على الوحي الإلهي (القرآن والسنة) الذي ورثناه عن أسلافنا"[٣].

- التراث هو تجارب السلف التي تركوها في المتاحف أو المقابر أو المنشآت أو المخطوطات وما زال لها تأثيرها في عصرنا الحاضر[٤].

وبالنظر في هذه التعاريف يمكن استنباط ما يلي:

١- يتضـمن التراث جانبين، الأول: روحي معنوي، ويشـمل العقيدة والآداب والمعارف والقيم والعلوم، والثاني: يشمل الآثار والمباني والوقائع والأحداث.

٢- التراث يتضـمن جانبا إلهيا هو العقيدة لا يمكن النظر إليه بمقياس الإيجابيات والسـلبيات، فهو جانب مقدس، وجانب آخر بشري يخضع لقواعد التصحيح، ومعرفة الصواب والخطأ.

٣- للتراث تأثير في الحاضـر، حيث يمتد تأثير التراث من الماضـي إلى الحاضـر فتسـتمد منه الأمة أفكارها عبر الأجيال وصولا إلى مستقبل تمتد جذوره إلى التاريخ.

---

(١) مقال بعنوان "التراث بين الأصالة والمعاصرة" الدكتور/ علي الدين هلال، مجلة الأمة، عدد ٥، مايو ١٩٨٥.

(٢)اليونسكو ٢٠٠٥م، المبادئ التوجيهية لتنفيذ اتفاقية التراث العالمي. اللجنة الدولية الحكومية لحماية التراث العالمي الثقافية والطبيعي. مركز التراث العالمي. موقع على الإنترنت: http://whc.unesco.org/en/gidelines

(٣) التراث والمعاصرة، الدكتور/ أكرم ضياء العمري، ص ٢٧، كتاب الأمة، شعبان ١٤٠٥هـ.

(٤) د. نعمات أحمد فؤاد – مجلة العربي – العدد ٣٠٠.

٤- ينبغي الإشـارة هنا إلى أن أكثر تعريفات التراث تدور حول أنه نتاج بشـري يتعلق بفهم الكتاب والسـنة وما يتعلق بهما، وهذا يعني أن الوحي بقسـميه [الكتاب والسـنة] خارج عن مفهوم التراث في تعريفه.

٥- التراث الإسـلامي في كثير من موضـوعاته ومضـامينه مرتبط بالوحي ومنظومة القيم المتعلقة به، ورؤيته للكون والحياة، والمرجعية العليا له.

٦- يمكن الذهاب إلى أن التراث يمثل ما أنتجه العقل المسـلم في تفاعله مع الأحداث والوقائع والتواريخ والأمم والحضارات التي عاصرها، والعلوم والمعارف والفنون والعمران والقيم الذي أنتجه مسترشدا بالمرجعية الإسلامية العليا.

ثانيا: التقديس: لغة التعظيم، يقال: قدس الشيء، يقدسه، تقديسا: إذا عظمه. يقال: قدس الله فلانا، أي: طهره. وأرض مقدسـة، أي: مطهرة. والتقديس: التنزيه والتطهير من جميع النقائص والعيوب. والقدوس: الطاهر المنزه البريء من كل عيب ونقص. ويسـتعمل بمعنى التبريك، يقال: بيت مقدس، أي: مبارك(١).

فمعناه يعود إلى التنزيه والتطهير والتبريك.

وقد ورد لفظ التقديس ومشـتقاته في القرآن الكريم والسـنة النبوية في هذه المعاني، من ذلك: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشـر:٢٣]﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾[الجمعة:١]، قال ابن جرير الطبري: القدوس أي: المبارك(٢)، أو: الطاهر من

(١) تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، ٨/ ٣٠٣، دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ٣/ ٩٦١، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، لسان العرب، ٦/ ١٦٨.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ٢٣/ ٣٠٢، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

كلّ ما يضيف إليه المشركون به، ويصفونه به مما ليس من صفاته المبارك[١].

وورد في وصـف جبريل عليه السـلام، قال تعالى: ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾[البقرة:٨٧]، وقال: ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾[المائدة:١١٠]، وورد في وصـف الأرض: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[المائدة:٢١].

وكلها معاني تدور حول نفس المعاني اللغوية من التطهير والتنزيه والتبريك، وقال المناوي: القدس: طهارة دائمة لا يلحقها نجس باطن، ولا رجس ظاهر[٢].

والمراد بالتقديس: رفع الشخص أو الشيء فوق منزلته التي أنزله الله تعالى إياها مع الاعتقاد أن له من القدسية والكرامة ما يستوجب الخضوع والإذعان.

وأصـل التقديس أن يكون لله وحده لا شـريك له؛ فهو المسـتحق وحده للتقديس، ومن أسـمائه تعالى القدوس، وأما غيره سـبحانه فإنما يسـتحق من التعظيم بحسـب ما له من مكانة عند الله تعالى، وبالطريقة التي شرعها الله لتعظيمه، وكل تعظيم خرج عن ذلك فهو تعظيم لم يأذن به الله تعالى.

ثالثا: التبخيس:

البَخْسُ: مَصْدَرُ بَخَسَ، ومَعْناهُ: النَّقْصُ والظُّلْمُ، يُقال: بَخَسَ الكَيْلَ والمِيزانَ، يَبْخَسُهُ، بَخْسـًا، إذا: نَقَصَـهُ. وثَمَنٌ بَخْسٌ، أي: ناقِصٌ، والبَخْسُ من الظلم أَنْ تَبْخَسَ أَخاك حَقَّه فتنقصـه كما يَبْخَسُ الكيالُ مكياله فينقصه، ويقال بَخَّسَ المُخُّ تَبْخِيسـًا أَي نقص، والبخس: نقصان الحق، وتباخس القوم: بخس بعضهم بعضا[٣]

والبخس: مادي ومعنوي، فيشـمل بخس الحق، وبخس المال، ومطل الغني، وبخس الحقوق

(١) السابق، ٢٣/ ٣٧١.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ)، ص ٢٦٩، عالم الكتب – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م

(٣)لسان العرب، ٦/ ٢٤، تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)، ١٥/ ٤٣٨، دار الهداية.

المعنوية كالعلوم وعدم نسبتها إلى أصحابها أو تنقيصها بعدم إنزالها قدرها، وبخس العلماء بعدم إنزالهم مكانتهم، والزهد في علومهم، وعدم نسبة الفضل لأهله.

المطلب الثاني: موقف المعاصرين من التراث.

ينقسم الناس في التعامل مع التراث إلى فريقين: فريق يميل إلى التقديس والتكريم والتعظيم، وفريق يميل إلى التبخيس والتنقيص، وحول هذين الموقفين تدور مواقف كثير من المعاصرين.

"أما أحدهما فهو نزوع شق من المسلمين إلى الاستهتار بالتراث والعمل على تجاهله وإقصائه، وذلك بحسبان أنه قد تجاوزه الزمن، فلم يبق فيه من عناصر القوة ما يساعد على بناء الحياة المتحضرة، بل لعله أصبح يمثل عائقا دون ذلك البناء، ذاهبا بعد ذك من قبل بعض هؤلاء إلى زعم التعامل المباشر مع أصول الوحي من قرآن وحديث، وذهابا من قبل آخرين إلى التجاوز لهذه الأصول كما كان التجاوز للتراث، والعلم على بناء الحياة على محض التدبير العقلي.

وأما الثاني: فهو نزوع إلى التشبث بالتراث فيما يشبه موقف التقديس الذي يفضي إلى التقليد لما فيه من الأفهام والاجتهادات دون أن يكون حق للمراجعة والنقد والاختيار، وذلك بدعوى التصدي للخطر الخارجي اعتصاما بالموروث على ما هو عليه في سبيل الحفاظ على الذات الثقافية المتعرضة للتلاشي برياح الغزو الثقافي العاتية القادمة من الغرب تارة، وبدعوى أن الحق في فهم الدين وتطبيقه لا يجاوز بحال ما تضمنه تراث الأوائل من الأفهام والتطبيقات تارة أخرى"[1].

ويوضح الدكتور حسن حنفي ثلاثة حلول للتعامل مع التراث:

الأول: الاكتفاء الذاتي للتراث: وذلك يعني أن تراثنا القديم حوى كل شيء مما مضى أو مما هو آت، وهو فخرنا وعزنا، وتراث الآباء والأجداد، علينا الرجوع إليه ففيه حل لجميع مشاكلنا الحاضرة. وهذا الموقف يكشف عن: النفاق، النرجسية، العجز.

الثاني: الاكتفاء الذاتي للجديد: وذلك يعني أن التراث القديم لا قيمة له في ذاته كغاية أو وسيلة، ولا يحتوي على أي عنصر من عناصر التقدم، وبأنه جزء من تاريخ التخلف أو أحد مظاهره، وأن

(١) التراث والمعاصرة، أكرم ضياء العمري، ص ٢٩.

الارتباط به نوع من الاغتراب، ونقص في الشـجاعة، وتخل عن الموقف الجذري. وهذا الموقف يكشف عن: قصور النظرة العلمية، التقليد، الازدواجية.

الثالث: التوفيق بين التراث والتجديد: ويعني هذا الموقف الثالث الأخذ من القديم ما يتفق مع العصر، وإرجاع الجديد لمقاييس القديم[1].

موقف تقديس التراث (الذوبان في التراث) :

يتعامل بعض المسـلمين من أصـحاب النظرة التقليدية مع التراث الإسـلامي على أنه –سـواء النصـوص الشـرعية أو الاجتهادات البشـرية على أنه دين مقدس يصـلح لكل زمان ومكان، ولا مجال للتغيير فيه، ويجب الخضـوع لكل جزئياته، وفي سـبيل ذلك يقفون عند اجتهادات القدماء كأنها شـرع منزل لا تخضع للنقد، ولا لقراءات العصر المنضبطة بضوابط الشرع.

ويتمثل هذا الموقف في عدد من النقاط، منها:

– من خلال الحرص الشـديد على إخراج الكتب السـابقة، وربما يكون ذلك دون تحقيق يناسـب العصـر، يقول الدكتور عبدالكريم بكار: "موقف الذوبان في التراث وهذا الموقف يتبنّاه كثير من الإسـلاميين؛ وذلك من خلال حركة النشـر الواسـعة التي تدفع لنا يوميًا بعشـرات الكتّاب التراثية على امتداد العالم الإسـلامي؛ حيث تأسـست المئات من دُور النشـر وهيئات ومكاتب التحقيق التي أخذت على عـاتقها تحقيق التراث ونشـره، بغض النظر –في بعض الأحيـان– عن القيمـة العلميـة للكتـاب المنشور؛ بل بغض النظر عن كون الكتاب المنشور يساهم في دفع ثقافتنا في الاتجاه الصحيح، أم يساهم في تشـويهها وزيادة عجزها عن اسـتيعاب النُّظم الحضـارية المعاصـرة! فهناك كُتُب كثيرة تحيي معارك عقدية وفقهية وتاريخية بين فرق ومذاهب ليس لها وجود الآن. وكُتُب مشـتملة على أحاديث ضـعيفة وموضـوعة كثيرة، تنتشـر دون أي تحقيق، ولا تنبه إلى مدى ما يمكن أن تحدثه من أضـرار في تصـوّراتنا وبنياتنا العقلية. وكُتُب كثيرة تبرز قضـايا وموضـوعات جزئية جدّاً، وتشـغل الناس بها، من نحو ما نراه

(١) ينظر: التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، حسن حنفي، ص ٢٧–٣١، المؤسسة الجامعية للدراسات، الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

اليوم من كُتُب تفسير الأحلام والكُتُب التي تتحدّث عن الجان والعفاريت وكيفية التحصّن منهم... وكُتُب مملوءة بالخرافات والأساطير عن فضائل فلان وكرامات علان، لا تستند إلى أصل ولا فصل.

وإلى جانب الحرص على نشر ما هو مهم من تراثنا، وما ليس مهمًا نجد لدينا نوعًا آخر من الذوبان في التراث يتمثَّل في الخوف من كلّ قول، أو رأي لم نجد له سابقة تراثية، يجري التأسيس عليها؛ فترى الذين يدعون إلى الاجتهاد والتجديد يقفون موقف المشنِّع على مَن يأتي بقول جديد، مهما كانت درجته العلمية وخبرته"[1].

والحال أن كثيرا من هذه الكتب تتناول قضايا ليست ذات جدوى، وتناقش موضوعات لا وجود لها في حياة المسلم المعاصر، وتتعامل معها على أنها قضايا مطلقة لا تحتمل الشك ولا النقض.

"إن بعض كتب الفقه الإسلامي قد تناولت بعض قضايا غير المسلمين في بعض الأحيان بما يتعارض مع ظاهر نصوص القرآن وظاهر أحاديث الرسول ﷺ وظاهر روح الشريعة الإسلامية ، واقتفى اللاحقون أثر السابقين في تناول أحكام أهل الذمة"[2].

فهناك من يخلط بين التراث وبين الدين، فيخلع عليه صفة القداسة التي هي للدين ؛ فينقل القدسية من الكتاب والسنة المعصومين إلى أقوال واجتهادات البشر الفقهية، والفكرية والأفعال التاريخية، ويدافع عن ذلك كله على أنه دين مقدس.

- قد يتعامل البعض مع التراث من مظلة دفاعية لمواجهة التيارات المختلفة، فيلجأ للتراث لمواجهة أي أفكار أو تيارات معاصرة تعارض الفكرة، "نموذج ماضوي سلفي ينزع إلى تقديس ما ليس بمقدس؛ لأنه يتخذ موقفا دفاعيا تجاه التيارات الدنيوية العالمانية والقومية الشوفينية، فيحقب التاريخ الإسلامي تحقيبا يخدم نزعته، ويفرد للقرون الثلاثة الأولى منزلة خاصة تضعها خارج التاريخ، وتخصها بحكم شرعي مميز، فلا يجوز مخالفتها إلا بدليل أو برهان أو قرينة، ويستند في ذلك إلى

(١) نحن والتراث، الدكتور عبدالكريم بكار، مقال على https://www.balagh.com

(٢) التراث الإسلامي بين التقدير والتقديس، د. بكر زكي عوض ، ص ٥٤ ، سلسلة قضايا إسلامية، عدد ١٤٥، ١٤٢٦هـ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية، ٢٠٠٥م.

نصوص نبوية[١] فسرت تفسيرا يساند هذه النزعة، ويحصن هذه الحقبة في مواجهة أي فكر أو فهم أو شرح أو تفسير أو تحليل جديد ينتمي إلى حقبة تاريخية لاحقة"[٢].

ويظهر هذا واضحا في كثير من الجوانب، منها على سبيل المثال:

استدعاء القديم لتفسير كل ما هو جديد، حيث يطيب للناظرين في التراث نظرة تقديس العودة إلى نصوصه لاستنطاقها وتحكيمها فيما يعن لهم من قضايا حتى وان كانت هذه النصوص قد عفا عليها الزمن، أو أن أصحابها قد دوَّنوها على حسب ما ناسب عصورهم وما ارتقت إليه فهومهم .وخذ مثلاً على ذلك بالنصوص الواردة في تفسير الآيات الكونية وما دلَّت عليه من حقائق علمية ، حيث "إن أكثرها مأخوذة من الفكر اليوناني أو الهندي أو الفارسي أو الإسرائيلي، ويمكن القول: إن أكثرها مأخوذة من التراث الإنساني فلا يتأتى جعله بيانًا للنص الكوني في عصر العلم التجريبي التطبيقي"[٣].

وقد قام مرصد الأزهر برصد عدد من الظواهر التي ينشغل بها أصحاب الفكر المتطرف من ناحية التعامل مع التراث، منها:

١- عدم المنهجية العلميّة في التعامل مع التراث.

٢- حرص تنظيم داعش الإرهابي -كمثال- على تأويل نصوص التراث من بعض الكتب المعتبرة؛ لإضفاء الشّرعيّة الدينيّة على أفعالهم الإجراميّة.

٣- الفهم الخاطئ لنصوص التراث، وتطويعها لخدمة أهدافهم الخبيثة.

٤- اقتطاع النصوص من سياقها واستغلالها في رسم صورة ذهنية مجتزأة.

٥- استغلال الاختلاف الفقهيّ لصالح التنظيم، مع اختيار الترجيحات التي تتوافق مع أيدولوجيّته المتطرفة.

٦- التناقض والانتقاء[٤].

---

(١) نصوص تفضيل القرون الثلاثة الأولى ثابتة في كتب الصحاح، لكنها لا تقتضي هذا الفهم عند البعض.

(٢) نحو منهج للتعامل مع التراث الإسلامي، محيى الدين عطية، ص ١٦٣

(٣) التراث الإسلامي بين التقدير والتقديس، د. بكر زكي عوض، ص ٥.

(٤) مقال بعنوان: جناية المتطرفين على التراث: منهج المتطرفين في التعامل مع التراث. مرصد الأزهر: وحدة رصد اللغة العربية.

والحقيقة أن هذا التعلق بالتراث بهذه الصورة لا يعود بالفائدة لا على التراث ولا على المتعاملين معه، فهو كما يقول مالك بن نبي: "إننا عندما نتحدث إلى فقير، لا يجد ما يسد به الرمق اليوم، عن الثروة الطائلة التي كانت لآبائه وأجداده إنما نأتيه بنصيب من التسلية عن متاعبه بوسيلة مخدر يعزل فكره مؤقتًا وضميره عن الشعور بها: إننا قطعًا لا نشفيها"(١).

أو كما يقول الأستاذ رضوان السيد: "الدارسون العرب للتراث فريقان: فريق اشتغل بهمة ليثبت أن الإسلام هو الحل، وتلك سيرة الأصاليين من الأجيال كافة، وفريق انصرف إلى بيان النقيض وإقامة الدليل على أن الإسلام هو المشكلة، وتلك مقالة الحداثيين أو قسم غير قليل منهم، والحال إن الإسلام لا هذا ولا ذاك، ولا يجوز بناء أي من الفرضين عليه، إذا المشكلة في واقعنا وحاضرنا السياسي والاجتماعي والثقافي، والحل فيه أيضا إن اهتدي إليه، وليس تعليق المسألة على مشجب الإسلام والتراث إلا شكلا من أشكال الهروب من جبة مشكلات اليوم في ميادينها الفعلية لا المفتعلة والمستعارة(٢).

وأكبر دليل على موقف تقديس التراث ما ورد حول الفتوى المشهورة لابن تيمية المسماة (فتوى أهل ماردين)، والتي نصها:

"وسئل – رحمه الله –: عن بلد " ماردين " هل هي بلد حرب أم بلد سلم؟ وهل يجب على المسلم المقيم بها الهجرة إلى بلاد الإسلام أم لا؟ وإذا وجبت عليه الهجرة ولم يهاجر وساعد أعداء المسلمين بنفسه أو ماله هل يأثم في ذلك؟ وهل يأثم من رماه بالنفاق وسبه به أم لا؟

فأجاب: الحمد لله، دماء المسلمين وأموالهم محرمة حيث كانوا في " ماردين " أو غيرها. وإعانة الخارجين عن شريعة دين الإسلام محرمة سواء كانوا أهل ماردين أو غيرهم. والمقيم بها إن كان عاجزا عن إقامة دينه وجبت الهجرة عليه، وإلا استحبت ولم تجب، ومساعدتهم لعدو المسلمين

(١) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، مالك بن نبي، ص ١٣، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م.

(٢) نقد التراث، عبدالإله بلقزيز، ص٤٧، مركز دراسات الوحدة العربية– بيروت، ٢٠١٤م.

بالأنفس والأموال محرمة عليهم ويجب عليهم الامتناع من ذلك بأي طريق أمكنهم من تغيب أو تعريض أو مصانعة؛ فإذا لم يمكن إلا بالهجرة تعينت، ولا يحل سبهم عموما ورميهم بالنفاق؛ بل السب والرمي بالنفاق يقع على الصفات المذكورة في الكتاب والسنة فيدخل فيها بعض أهل ماردين وغيرهم. وأما كونها دار حرب أو سلم فهي مركبة: فيها المعنيان؛ ليست بمنزلة دار السلم التي تجري عليها أحكام الإسلام؛ لكون جندها مسلمين؛ ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار؛ بل هي قسم ثالث يعامل المسلم فيها بما يستحقه ويقاتل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه[1].

حيث استندت كثير من الجماعات المتطرفة في العصر الحالي إلى هذه الفتوى في تبرير ما يقومون به من أعمال تخريب وتدمير وقتل واستباحة للدماء والأموال، استنادا إلى نص محرف في الفتوى في قوله: ويقاتل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه.

والصواب الوارد في النسخ الصحيحة: ويعامل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه.

وقد حققت دار الإفتاء المصرية هذا النص في جوابها عن هذه الفتوى قائلة: "وقع اختلال في الفهم من بعض المتشددين حيث تعلقوا بهذه الفتوى دون الرجوع إلى أهل العلم والاختصاص، ليبينوا فحوى هذه الفتوى ومعناها والسياق الذي قيلت فيه، والذي أدى إلى هذا الاختلال هو عدم الوقوف فضلًا عن الدربة والاستخدام للمنهج العلمي في كيفية توثيق النصوص وفهمها لدى علماء المسلمين، حيث انتقى هؤلاء الأحَداث وغير المتخصصين فتوى ابن تيمية بشكل مُحرف، فحرفوا كلمة: [ويعامل الخارج عن شريعة الإسلام] بكلمة [ويقاتل الخارج عن شريعة الإسلام]، وبذلك برروا أعمال القتل والعنف والتخريب وترويع الآمنين من المسلمين وغير المسلمين، والصواب من عبارة ابن تيمية ما أثبتناه بدليل:

أ- أنها وردت هكذا [ويعامل] في النسخة المخطوطة الوحيدة الموجودة في المكتبة الظاهرية وهي برقم (٢٧٥٧) في مكتبة الأسد بدمشق.

ب- فيما نقله ابن مفلح وهو تلميذ ابن تيمية وقريب العهد منه فقد نقلها على الصواب [ويعامل] في

(١) مجموع الفتاوى، ٢٨/ ٢٤٠-٢٤١.

"الآداب الشرعية" (١/ ١٩٠، ط. عالم الكتب).

جـ- نقلت الفتوى في "الدرر السنية في الأجوبة النجدية" (٩/ ٢٤٨، ط. السادسة) على الصواب.

د- نقلها الشيخ رشيد رضا في "مجلة المنار" على الصواب، وأما هذا التصحيف فقد وقع أول ما وقع قبل مائة عام تقريبًا في طبعة "الفتاوى" التي أخرجها فرج الله الكردي عام ١٣٢٧هـ، ثم تابعه على ذلك الشيخ عبد الرحمن القاسم في "مجموع الفتاوى" (٢٨/ ٢٤٨) وأصبح هذا النص هو المشهور والمتداول لشهرة طبعة "مجموع الفتاوى" وتداولها بين طلبة العلم[١].

موقف التبخيس (رفض التراث):

وقف كثير من المعاصرين الحداثيين من التراث موقفا بين الرفض المطلق، أو اعتباره -في أفضل الأحوال- خطابا انتهى عصره، ولم يعد لديه ما يقدمه للعالم في ظل الثقافة المعاصرة.

ويتمثل خطاب الرفض للتراث في نقاط، أهمها:

- المقاطعة مع الماضي بكل صوره وأشكاله، واعتبار هذا الماضي صور من صور التخلف والعودة إلى عصور الجهل والانحطاط، يقول زكي نجيب محمود: "التراث كله بالنسبة إلى عصرنا قد فقد مكانته؛ لأنه يدور أساسا على محور العلاقة بين الإنسان والله، على حين أن ما نلتمسه اليوم في لهفة مؤرقة هو محور تدور عليه العلاقة بين الإنسان والإنسان"[٢]، ويقول: "إني لأقولها صريحة واضحة: إما أن نعيش عصرنا بفكره ومشكلاته، وإما أن نرفضه ونوصد دونه الأبواب لنعيش تراثنا.. نحن في ذلك أحرار، لكننا لا نملك الحرية في أن نوحد بين الفكرين"[٣].

ويقول سلامة موسى: "إن أسوأ ما أخشاه أن ننتصر على المستعمرين ونطردهم، وأن ننتصر على المستغلين ونخضعهم، ثم نعجز عن أن نهزم القرون الوسطى في حياتنا، ونعود إلى دعوة: عودوا إلى

(١) فتوى دار الإفتاء المصرية بعنوان: "فتوى ابن تيمية في أهل ماردين" برقم "٢٣٠٩"، بتاريخ ١٥ نوفمبر ٢٠١٦م.

(٢) تجديد الفكر العربي، زكي نجيب محمود، ص ١١٠، دار الشروق ١٩٧١م.

(٣) السابق، ص ١٨٩.

القدماء"[١].

ويقول أدونيس: "وجوب تحرير العربي من كل سـلفية، ووجوب إزالة القدسـية عن الماضـي والنظر إليه كجزء من تجربة أو معرفة غير ملزمة إطلاقا، والنظر إلى الإنسـان تبعا لذلك على أن جوهره الإنساني الحقيقي هو في كونه خلاقا مغيرا أكثر منه وارثا ومتابعا"[٢].

- التعامل مع التراث بانتقائية وازدواجية في المعايير، فيتم قبول بعض الآراء الفلسـفية التي يُظن أنها تقف في اتجاه التيار الحداثي، وتؤيد مشـروعه، ويتم رفض باقي التراث بحجة أنه غير مواكب للعصر ولا قيمة له.

"يتعامل أنصار الخطاب الحداثي بمعايير مزدوجة، حيث يجعلون التراث الفلسفي كما هو الحال في فلسفة ابن رشد والكلامي كما يظهر عند المعتزلة، والصوفي كما تجلى في فلسفة الشيخ محي الدين ابن عربي نموذجا للتنوير والتطور الحضـاري والأنسـنة والعقلنة والانفتاح، على خلاف تراث أهل الرسـوم من الفقهاء والأصـوليين الذي يعتبر عندهم نوعا من الانغلاق والتعصـب كما يظهر في كتابات ابن تيمية وأتباعه، كما يسـعون في الوقت نفسـه إلى القطيعة مع كل ما هو تراثي لا يخدم أفكارهم وتوجهاتهم المتشـربة من مذاهب الغرب، على سـبيل المثال يشـيد كل من أبو زيد وأركون والجابري بالشـطر الفلسـفي من التراث، حيث يصـرح أركون بأنه: "ينبغي الاعتراف بأن منهجية المعتزلة كانت تحتوي إمكان نظرية كامنة وواعدة"، كما أخذ الجابري "يشرح الفكر المعتزلي ويعتبره نموذج التفكير المتنور الذي دمج بين الشريعة والعقل"، وكل هذا يقع في مقابل ذم ما هو تراثي ديني[٣].

- التعامل مع التراث باعتبار المنفعة المحضـة، حيث يقبل من التراث ما يمكن أن يكون مفيدا في حياتنا المعاصـرة بالطريقة التي تقيمها المدنية الحديثة، ويتم رفض ما عدا ذكر من التراث الذي لا

(١) ما هي النهضة، سلامة موسى، ص ١٠، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة،

(٢) الثابت والمتحول، أدونيس أحمد علي سعيد، ١/ ٣٤، دار العودة- بيوت، الطبعة الرابعة ١٩٨٣م.

(٣) نقد التراث في الخطاب الحداثي، ص٣٧، ٣٨، ملتقى قراءة للتراث والهوية في زمن العولمة، جامعة الجيلالي بو نعامه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

يخدم طريقة العيش التي يحياها المجتمع.

"فماذا عسانا أن نأخذ من تراث الأقدمين؟ الجواب هو: نأخذ من تراث الأقدمين ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقا عمليا، فيضاف إلى الطرائق الجديدة المستحدثة، فكل طريقة للعمل اصطنعها الأقدمون وجاءت طريقة جديدة أنجح منها كان لا بد من اطراح الطريقة القديمة ووضعها على رف الماضي الذي لا يعني به إلا المؤرخون، بعبارة أخرى: إن الثقافة – ثقافة الأقدمين أو المعاصرين- هي طرائق عيش، فإذا كان عند أسلافنا طريقة تفيدنا في معاشنا الراهن أخذناها، وكان ذلك هو الجانب الذي نحييه من التراث، وأما ما لا ينفع نفعا عمليا تطبيقيا فهو الذي نتركه غير آسفين"(١).

- النظر إلى التراث بمعايير أيديولوجية مختلفة، وأهمها عندهم النظر إليه بالنظرة الماركسية، حيث يصرح أحدهم: "إن النظريات الاشتراكية العلمية الماركسية هي المنظار الذي يجب أن ننظر من خلاله إلى التراث، فما استقام منه لها قبلناه، وأما ما لا يستجيب منه لذلك فإنه يعزل تاريخيا"(٢).

أو كما يقول أحدهم: "ينظر الليبرالي العربي إلى التراث العربي الإسلامي من الحاضر الذي يحياه، حاضر الغرب الأوربي، فيقرأه قراءة أورباوية النزعة، أي ينظر إليه من منظومة مرجعية أوربية، ولذلك فهو لا يرى فيه إلا ما يراه الأوربي"(٣).

- التحرر من كل قدسية للنصوص -باعتبارها من التراث- واعتبارها نصوصا قابلة للنقد والتصويب، وبذلك تسقط النصوص الشرعية الثابتة.

"القراءات الحداثية للتراث تركز على الانتقاد بدل الاعتقاد، و تسعى إلى التحرر من كل الخطوط الحمراء التي أقامها رجال الدين حول النص القرآني التي تصطلح عليها بالسياجات الدوغمائية والآرثوذكسية، وباختصار هي تتحرر "من الهيبة الساحقة للنص" بلغة محمد أركون، حيث أن

(١) تجديد الفكر العربي، زكي نجيب محمود.

(٢) من التراث إلى الثورة، طيب تيزيني، ص .

(٣) نحن والتراث قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، محمد عابد الجابري، ص ١٤، المركز الثقافي العربي- بيروت، الطبعة السادسة ١٩٩٣م.

جوهرها نزع القداسة عن النص أو التعامل معه بحرية لا تحدها حدود أو قيود، وهو ما يجعلها تمس بالتراث وتنتهك حرمته بدل دراسته وتحليله باسم شعار الموضوعية التي يصعب تحقيقها في فهم قضاياه"[١].

ويقول آخر: "لن نستفد من تراثنا ما لم نسلط عليه ترسانة العلوم المعاصرة، لن نصنع عالمنا ما لم يحرر تراثنا من أسر الفهوم التي تشل قدرة هذا التراث على الفعل الإيجابي في سياق العصر"، ويقول: تصنيم التراث لم يقتصر على التراث، وإنما تعداه إلى سدنة التقليد، المتشدقين بصوت التراث وحمايته، لقد أصبح هؤلاء السدنة أعظم صنمية من مقولات التراث ذاتها"[٢].

- ادعاء ضرورة مسايرة عصر العلم والانتقال إلى الحضارة ومنجزاتها، وترك كل ما يتعلق بالماضي، أو كما يقول جورج طرابيشي: "ننتقل من دروشة النصوص وشروحها وحواشيها إلى العلم ومخابيره ومعامله، ثم إلى التصنيع بكل تقنياته، ومن معرفة قوامها الكلام إلى معرفة قوامها الآلى التي تصنع"[٣].

وادعاء أن التوقف عند التراث رجوع إلى الخلف وترك للعصر "إن المجتمعات المتوقفة ترزح تحت حمل يثقل كاهلها ويؤزم ضميرها، هو التراث الذي خلفته لها الأوائل والذي تدين له بالولاء والتقديس. أما المجتمعات العصرية فقد تجاوزت مرحلة القبول الضمني لقيم الماضي، وعالجت تراثها الثقافي كموضوع فرضي من توابع التاريخ، وكمادة للتحليل والمناقشة قابلة للرفض، وهذا لا يعني طبعا عدم المحافظة عليه من باب التوثيق والمراجعة"[٤].

فهو لا يقف عند التراث إلا من باب التوثيق والمراجعة فقط، وليس من باب الإحياء.

بل يصل الأمر بالبعض إلى اعتبار أن المطالبة بإحياء التراث وضرورة مراجعته والاستفادة منه

(١) نقد التراث في الخطاب الحداثي، حمادي هواري، ص ٣٨.

(٢) كتاب الرياض الإلكتروني (حروف وأفكار)، محمد بن علي المحمود، ص ١٤.

(٣) التيار العلمي في مذبحة التراث، جورج طرابيشي، نقلا عن تجديد الفكر العربي.

(٤) التراث عقيدة العاجزين، محمد القرفي، مجلة المسار، اتحاد الكتاب التونسيين، عدد ١١، ١٩٩١م، ص ١٠٣.

إنما يصب في صالح القوات الغازية، "عملية إحياء التراث تعتبر سلاحا جماهيريا صارما، تستخدمه القوى السياسية والأيديولوجية الإقطاعية والرجعية عامة، يدا بيد مع الغزاة الإمبرياليين في تكريس الأوضاع القائمة، وإضفاء هالة القداسة عليها"(١).

والحق أن الهدف من وراء هذا الموقف لا يقف عند حد رفض التراث فقط، فقد تمثل الهدف الأكبر في اتخاذ هذا دليلاً على عدم صلاحية هذا التراث للواقع، وبالتالي رفضه برمته بدعوى المعاصرة.... ولتحقيق هذه الدعوة على أرض الواقع حرص أصحاب هذا التيار على اصطناع" المحاولات لانتقاص التراث ووصفه بأنه قديم وبأنه مضطرب وذلك في محاولة للقول: بأن المجتمعات تستطيع أن تزيح هذا التراث وتبتكر من الحلول والأوضاع الجديدة المتفقة مع روح العصر وطبيعة التطور ما تشاء دون الخضوع للتراث أو استملاء روحه"(٢).

(١) من التراث إلى الثورة.

(٢)إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام، أنور الجندي، ص٤٥٤ ، دار الاعتصام، الطبعة الأولى.

المطلب الثالث: ضوابط التعامل مع التراث

لا يمكن النظر إلى التراث بأي من النظرتين السـابقتين، فكلتاهما تخرج التراث عن إطاره ودوره في حياة المسـلم المعاصـر، لكن ينبغي النظر إلى التراث بمنهج النظر إلى ميراث الآباء والأجداد الذي يحوزه المرء، فيحافظ عليه ويسـعي إلى تنميته ليواجه به متطلبات الحياة، هكذا التراث "ثمة إبداعات كثيرة في التراث ما زالت حية نابضـة، وتملك من الفاعلية والنضـج ما يجعلها أسـاسـا صـالحا للبناء العقلي والمعرفي الحديث، كما أن هناك غير ذلك من النتاجات التي تحتاج إلى الترشـيح والتنقية والتمييز بين ما هو لحظي متحول فيها وما هو إنسـاني مطلق منفصـل عن اللحظة التاريخية التي ولد فيها، بحيث يمكننا أن نَخْلُص من هذا الإحياء التراثي بحصـيلة ثقافية ومعرفية هائلة تمتاز بالأصـالة والإضـافة المبدعة، وبحيث يصـبح إهمال هذه الحصـيلة الإنسـانية الضـخمة أو تجاوزها ضـربا من الجنون أو نوعا من الغفلة"[1].

ولذلك يمكننا وضع عدد من الضوابط التي نتعامل بها مع التراث على النحو التالي:

١ – القرآن والسنة ليسا من التراث، بل هما المرجعية العليا التي نحكم بها على التراث.

فالقرآن والسـنة نصـوص قطعية لا تخضـع للنقد أو المراجعة، بينما الاجتهادات البشـرية التي تدور في فلك الكتاب والسنة تظل اجتهادات بشـرية يمكن إخضـاعها لعملية التقويم والمراجعة، والقبول والرد منهـا، وبهـذا يجمع التراث الإسـلامي بين الـديني المقـدس، وبين التـاريخي الظني، فـالمقـدس هو النصوص القطعية، التي تمثل الأصول والكليات والقواعد العامة، والظني هو النصوص المحتملة مما سـوى القرآن والسـنة، أو النصـوص المحتملة لأكثر من معنى بما فيها القرآن والسـنة، وبهذا يجمع التراث الإسـلامي بين الثبات والمرونة، فالثبات يسـتدعي المحافظة على المبادئ والقواعد الكلية، والمرونة تستوعب المستجدات التي تحدث في أي عصر من العصور.

فالقرآن والسـنة النبوية إن أدخلا في التراث فإنهما يسـموان عليه، فالتراث ينطلق منهما وينضـبط بهما، فالقرآن الكريم والسـنة النبوية وحي قوام على التراث وحفيظ على ما فيه من القيم، وهما الإطار الذي

(١) الغارة على التراث الإسلامي، جمال سلطان، ص ١١.

يجب أن نرجع إليه ونحتكم في كل قضايا التراث.

٢- إخلاص النية:

فينبغي لمن يتلمس الحق ويسعى للوصول إليه وينظر في تراث الأوائل أن يكون قصده حراسة دين الله تعالى، والذب عن شـريعته، وبيان وجه الحقيقة، ودلالة الناس على مراد الله تعالى، يقول أبو حامد الغزالي: "أن يكون في طلب الحق كناشـد ضـالة لا يفرق بين أن تظهر الضـالة على يده أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معينًا لا خصمًا، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق"(١).

٣- نفي العصمة عن كل أفراد الأمة عدا رسول الله ﷺ:

فرسـول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، وهو يبلغ عن ربه عز وجل، ولا عصـمة لأحد كائنا من كان بعد النبي ﷺ، من أول جيل الصـحابة ومن تبعهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فاجتهادات العلماء قابلة للأخذ والرد، ولم يدع أحد من ساداتنا وعلمائنا العصمة لأقوالهم وآرائهم.

فالتراث ليس وحيا بل هو عمل إنساني مرتبط بالوحي الإلهي.

٤- مشروعية نقد تراث الأمة:

مع ثبوت نفي العصـمة عن كل أحد غير رسـول الله ﷺ، فكل من أتى بعده من الصـحابة والتابعين وعلماء الأمة في كل التخصـصـات والعلوم بشـر مجتهدون، وكل آرائهم وأقوالهم واجتهاداتهم قابلة للنقد والنقاش؛ لأنها عمل العقل البشـري الذي يعتريه النقص والنسـيان والخطأ، ولهذا ورد عن كثير من السابقين قولهم: ليس أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢).

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ)، ١/ ٤٤ دار المعرفة – بيروت.

(٢) القراءة خلف الإمام، للإمام البخاري، باب "وجوب القراءة للإمام والمأموم وأدنى ما يجزئ من القراءة، ص١٤، المكتبة السلفية، الطبعة الأولى١٤٠٠هـ١٩٨٠م، والمعجم الكبير للطبراني، رقم "١١٩٤١"، وموطأ مالك، باب "وجوب الأخذ بسنة رسول الله ﷺ"، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء عن مجاهد ٣/ ٣٠٠.

٥- أهلية الناظر في كتب التراث:

إذا كان النقد والمراجعة مشـــروعا من باب عدم منع الحق عن صـــاحبه، فإن من الخطورة إعطاء هذا الحق لمن لا يســتحقه، فلا يدخل في هذا الفن من ليس كفؤا له، ولا يملك مبادئه، ولا يدري مســالكه، فمن لا يعلم لا يحق له النظر في أقوال العالم، وقد أشـــار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾[مريم:٤٣].

ومن أعظم البلاء في التعامل مع التراث أن يتعرض الأصـاغر لكلام الأكابر، وأن ينتقد الجهال العلماء، وأن يعترض الأغبياء على أولي الألباب.

والأصـل في هذا قوله سـبحانه وتعالى: "﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾[الإســراء:٣٦]، وقد ذم الله تعالى من يحاجج بلا علم، فقال: "﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ ﴾[آل عمران:٦٦].

٦- النظر إلى القول دون اعتبار القائل:

ويسري هذا الضابط على فرعين:

الأول: إهمال بعض الآراء لأن القائلين بها ليسوا من الموافقين في الرأي أو المنهج.

الثاني: قبول بعض الآراء نظرا إلى مكانة قائلها دون مراجعتها وعرضها على محك النقد والعقل.

ولهذا ورد في تراثنا أن الحق لا يعرف بالرجال، وإنما يعرف الرجال بالحق.

وعن معاذ بن جبل ﷺ: "وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق"، قال: قلت لمعاذ: ما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال: "بلى، اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال لها ما هذه، ولا يثنينك ذلك عنه، فإنه لعله أن يراجع، وتلق الحق إذا ســمعته فإن على الحق

نورا"[1].

فلا ملازمة بين مكانة العالم ورأيه قبولا أو ردا.

٧- الاعتدال في تقويم التراث:

من مهمات التعامل مع التراث الإنصاف في تقويم هذا التراث، والنظر إليه بالقسط، بإظهار الإيجابيات وإبرازها ونشرها، وتقويم السلبيات والإشارة إليها، دون تنقيص أو تبخيس، فنتعامل بالقسط دون تعصب لطائفة أو فرقة أو عالم، امتثالا لقول الله تعالى: "﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[النساء:١٣٥]، وقوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[المائدة:٨].

٨- نقد الآراء لا يعني الطعن في قائليها:

مشروعية نقد الآراء وتصويبها لا يعني الطعن في أصحابها وتجريحهم، بل ينبغي أن تنقد القول دون القائل، لأن القائل في كل أحواله –إن أحسن النية– مجتهد مأجور، كما قال النبي ﷺ: عن عمرو بن العاص، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر"[2].

٩- تجنب قراءة المعنى قبل قراءة الألفاظ وقبل فهم دلالتها اللغوية في عصرها، بل يجب فهم اللفظ فهما صحيحا قبل استخلاص المعنى، ثم يستخلص المعنى من ذات النص، ولا يسقط عليه فهما تأثرنا به من نصوص أخرى للكاتب نفسه، أو من شروح أخرى له، أو من رؤية سابقة لنا تجاهه[3].

(١) سنن أبي داود، كتاب "السنة" ، "لزوم السنة"، رقم "٤٦١١"، والسنن الكبرى للبيهقي، باب "ما تجوز به شهادة أهل الأهواء"، رقم "٢٠٩٥٧".

(٢) متفق عليه.

(٣) ينظر: نحو منهج للتعامل مع التراث الإسلامي، محيي الدين عطية، ص ١٧١.

وهناك مقترحان لمنهجية التعامل مع التراث، أولاهما للدكتور طه جابر علواني، يقول: "المنهجية التي يجري التعامل بها مع التراث يجب أن تقوم على:

١- أن لا نرفض التراث رفضًا قاطعًا كما يفعل العلمانيون.

٢= عدم تبنيه بالكامل كما يفعل الماضون.

٣- عدم الانتقاء العشوائي غير الملتزم بمنهج علمي.

وقد اعتمد الدكتور على منهج يقوم على:

الكشـف عن القاعدة المعرفية التي ينطلق منها الناس في بناء أفكارهم ورؤيتهم للإنسـان والكون والحياة، وهذه الرؤية المتكاملة تشـكل القاعدة التي ينطلق منها الناس في بناء أفكارهم ومقولاتهم فإذا كان الإنسـان يحمل رؤية صـحيحة عن الكون والإنسـان والحياة، وعن خالق الكون وخالق الإنسـان والحياة والمعرفة صحت أفكاره، وهنا يكون القرآن هو الحاكم والمرجعية[١].

المنهجية الثانية وضـعها الدكتور خالد فهمي حيث يرى أن التعامل مع التراث ينبغي أن يتم من خلال مجموعة من المفاتيح، قسما إلى ثلاث مجموعات:

أولا: مجموعة المفاتيح الإدراكية) مفاتيح الوعي) وقد أدرج تحت هذه المجموعة مفاتيح أربعة فرعية:

١- مفتاح إدراك روح التراث والوعي بخصائصه .

٢- مفتاح الوعي بمقاصد التراث العربي الإسلامي .

٣- مفتاح الوعي بآداب التعامل والسلوك مع التراث العربي الإسلامي .

٤- مفتاح الوعي بوظائف التراث في الحياة المعاصـر، وعد من هذه الوظائف: الوظيفة الإحيائية، الحضارية، السياسية، اللسانية

ثانيا: مجموعة المفاتيح المعرفية: وقد أدرج تحت هذه المجموعة ثلاثة مفاتيح:

(١) ينظر: مقدمة في إسلامية المعرفة ، د. طه جابر العلواني ، ص ١٣٥ وما بعدها، دار الهادي للطباعة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

١- مفتاح معرفة موضـوعات العلم، وقد أجملها في موضـوعات ثلاثة: وهي العلوم الشـرعية (علوم الغايات)، والعلوم العربية (علوم الآلات)، والعلوم الحكمية (علوم اليونان).

٢- مفتاح العلم بعلاقات النصوص .

٣- مفتاح العلم بمستويات المؤلفين ومذاهبهم.

ثالثا: مجموعة مفاتيح التشغيل)المفاتيح الإجرائية)، وقد أدرج تحت هذه المجموعة :

-١ مفتاح العلم بالمصادر العامة واتقان التعامل معها .

٢- إتقان التعامل مع المفتاح اللغوي (الأداة اللغوية).

٣- إتقان مفتاح الرسم أو الخط والكتابة.

٤- تحصيل مفتاح العلم بقواعد تحقيق النصوص ونقدها وتصحيحها وضبطها.

٥- تحصيل مفتاح العلم بفهارس المخطوطات.

٦- تحصيل مفتاح العلم بالنقد التاريخي لكتب التراث.

٧- تحصيل مفتاح العلم بالوصف المادي لأوعية المعلومات التراثية[١].

(١) ينظر: مفاتيح التعامل مع التراث العربي الإسلامي انتعاشة الروح، الدكتور خالد فهمي، مجلة المسلم المعاصر، مجلد ٣٩ عدد١٥٦، يونيو ٢٠١٥.

الخاتمــة

بعد هذا العرض السريع يمكن استخلاص النتائج التالية:

١- للتراث جانبان، الأول: روحي معنوي، والثاني: مادي، ومنه ما لا يمكن النظر إليه بمقياس الإيجابيات والسلبيات، وهو الإلهي المقدس، والآخر بشري يخضع لقواعد التصحيح، ومعرفة الصواب والخطأ.

٢- للتراث تأثير في الحاضر يمتد إلى المستقبل، حيث تستمد منه الأمة أفكارها عبر الأجيال.

٣- ينقسم الناس في التعامل مع التراث إلى فريقين: فريق يميل إلى التقديس والتكريم والتعظيم، وفريق يميل إلى التبخيس والتنقيص، وحول هذين الموقفين تدور مواقف كثير من المعاصرين.

٤- يتمثل موقف تقديس التراث أو الذوبان في التراث في: إخراج كتب التراث دون تحقيق علمي دقيق، الخوف من الآراء التي ليس لها سابقة تراثية، الخلط بين التراث البشري والنصوص المقدسة، استدعاء القديم واستنطاقه لتفسير كل جديد، الفهم الخاطئ لنصوص التراث واقتطاعها من سياقها.

٥- يتمثل موقف تبخيس التراث أو رفضه في: المقاطعة مع الماضي واعتباره صوره من صور التخلف، التعامل مع التراث بانتقائية وازدواجية، النظر إلى التراث بمعايير أيديولوجية مختلفة، التحرر من كل قدسية للنصوص.

٦- هناك ضوابط لا بد من مراعاتها عند التعامل مع التراث حتى لا نقع في أحد الخيارين المرفوضين في النظرة إلى التراث.

فهرس المراجع

١- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ)، دار المعرفة – بيروت.

٢- أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٣- إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام، أنور الجندي، دار الاعتصام، الطبعة الأولى.

٤- إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، مالك بن نبي، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م.

٥- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)، دار الهداية.

٦- تجديد الفكر العربي، زكي نجيب محمود، دار الشروق ١٩٧١م.

٧- التراث الإسلامي بين التقدير والتقديس، د. بكر زكي عوض ، سلسلة قضايا إسلامية، عدد ١٤٥، ١٤٢٦هـ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية، ٢٠٠٥م.

٨- التراث العربي، عبدالسلام هارون، إصدار مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف الكويتية والشئون الإسلامية- الكويت، الإصدار الثمانون، ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م.

٩- التراث عقيدة العاجزين، محمد القرفي، مجلة المسار، اتحاد الكتاب التونسيين، عدد ١١، ١٩٩١م.

١٠- التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، حسن حنفي، المؤسسة الجامعية للدراسات، الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

١١- التراث والمعاصرة، الدكتور/ أكرم ضياء العمري، كتاب الأمة، شعبان ١٤٠٥هـ.

١٢- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

١٣- التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي

القاهري (ت: ١٠٣١هـ)، عالم الكتب – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م

١٤- الثابت والمتحول، أدونيس أحمد علي سعيد، دار العودة- بيوت، الطبعة الرابعة ١٩٨٣م.

١٥- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت:٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

١٦- سلوك المالك في تدبير الممالك، شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع، تحقيق د/ حامد عبدالله ربيع، دار الشعب- القاهرة، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

١٧- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار،دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

١٨- الغارة على التراث الإسلامي، جمال سلطان، مكتبة السنة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

١٩- القراءة خلف الإمام، للإمام البخاري، المكتبة السلفية، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ١٩٨٠م.

٢٠- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.

٢١- ما هي النهضة، سلامة موسى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

٢٢- مفاتيح التعامل مع التراث العربي الإسلامي انتعاشة الروح، الدكتور خالد فهمي، مجلة المسلم المعاصر، مجلد ٣٩ عدد١٥٦، يونيو ٢٠١٥.

٢٣- مقدمة في إسلامية المعرفة ، د. طه جابر العلواني ، ص ١٣٥ وما بعدها، دار الهادي للطباعة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

٢٤- مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، الدكتور/ رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي- القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٥م.

٢٥- نحن والتراث قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي- بيروت، الطبعة السادسة ١٩٩٣م.

٢٦- نحو منهج للتعامل مع التراث الإسلامي، محيى الدين عطية.

٢٧- نقد التراث في الخطاب الحداثي، ملتقى قراءة للتراث والهوية في زمن العولمة، جامعة الجيلالي بو نعامه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

٢٨- نقد التراث، عبدالإله بلقزيز، مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت، ٢٠١٤م.

مواقع إلكترونية:

١- مقال بعنوان "التراث بين الأصالة والمعاصرة" الدكتور/ علي الدين هلال، مجلة الأمة، عدد ٥، مايو ١٩٨٥.

٢- اليونسكو ٢٠٠٥م، المبادئ التوجيهية لتنفيذ اتفاقية التراث العالمي. اللجنة الدولية الحكومية لحماية التراث العالمي الثقافية والطبيعي. مركز التراث العالمي. موقع على الإنترنت: http://whc.unesco.org/en/gidelines

٣- د. نعمات أحمد فؤاد – مجلة العربي – العدد ٣٠٠.

٤- نحن والتراث، الدكتور عبدالكريم بكار، مقال على https://www.balagh.com

٥- مقال بعنوان: جناية المتطرفين على التراث: منهج المتطرفين في التعامل مع التراث. مرصد الأزهر: وحدة رصد اللغة العربية.

٦- فتوى دار الإفتاء المصرية بعنوان: "فتوى ابن تيمية في أهل ماردين" برقم "٢٣٠٩"، بتاريخ ١٥ نوفمبر ٢٠١٦م.

فهرس موضوعات البحث

المحتويات

المقدمـــة ٥٣٥

التمهيد ٥٣٦

المطلب الثاني: موقف المعاصرين من التراث. ٥٤١

المطلب الثالث: ضوابط التعامل مع التراث ٥٥٢

الخاتمـــة ٥٥٨

فهرس المراجع ٥٥٩

فهرس موضوعات البحث ٥٦٢